الباب الأول

فى صفة الدنيا وسكانها من إنسها وجانها

اعلم وفقك الله أن الدنيا عبارة عما فى فلك القمر من الهواء والبحار والأرض وما عليها وما تحتها وما يحيط بها والمعمورة فيها يقال مسيرة مائة عام من ناحية الشمال، مع ما يقاربه من المشرق والمغرب.

وما سواه من الأرض، ليس فيه آدمى لقرب الشمس وميلها على ما سوى الشمال وشدة سلطانها على ما سوى الشمال، فإن الشمال بارد يابس، ومغربه بارد رطب، ومشرقه حار يابس، فقابلت حرارة المشرق ببرودة الشمال، وبرودة المغرب ورطوبته، فكان أعدل مواضع الأرض للحيوانات والنبات، فأسكن الله عز وجل فيه بنى آدم رحمة منه وفضلاً.

ثم جعل يأجوج ومأجوج وهما من أولاد آدم من ولد يافث بن نوح عليه السلام، وجعل مواضعهم ومساكنهم فى آخر بلاد الشمال أرضًا متصلة ببحر الظلمات، طولها ثمانون سنة.

وبين ولد سام وبينهم سد ذى القرنين الذى ذكره الله تعالى فى القرآن بين الصدفين، بناه من الحديد والنحاس، ويأجوج ومأجوج أمم لا يعلمهم إلا الله تعالى، كثيرة كأمثال البهائم، لهم قوة وبأس، يرمون بالنُّشَّاب، ولهم عدوان كعدوان السباع الضارية، ولا دين لهم فيما يقال، والله أعلم.

وقد بقى من المائة سنة المعمورة عشرون سنة، منها أربع عشرة لأنواع السودان وبلادهم مما يلى المغرب الأعلى المتصل بطنجة ممتدًا على بحر الظلمات[1]، وقد أسلم من ملوكهم فيما يقال خمس قبائل، أقربهم غانة، ينبت فى رمالهم الذهب التبر الغاية وهو

(١) يطلق الجغرافيون العرب اسم بحر الظلمات على المحيط الأطلسى بينما يطلقون اسم بحر المحيط على مختلف المحيطات التى تحيط بالأرض من الشرق والشمال.

كثير عندهم[١]، يحمل التجار إليهم حجارة الملح على الجمال من الملح المعدنى، فيخرجون من بلدة يقال لها سجلماسة آخر بلاد المغرب الأعلى، فيمشون فى رمال كالبحار، ويكون معهم الأدلاَّء يهتدون بالنجوم وبالجبال فى القفار ويحملون معهم الزاد لستة شهور، فإذا وصلوا إلى غانة باعوا الملح وزنا بوزن الذهب، وربما باعوه وزنا بوزنين أو أكثر على قدر كثرة التجار وقلتهم.

وأهل غانة أحسن السودان سيرة وأجملهم صورا، سبط الشعور، فيهم عقول وفهم، ويحجون إلى مكة.

وأما قناوة وقُوقُو وملى وتكرور وغَدَامِس، فقوم لهم بأس وليس فى أرضهم بركة ولا خير فى أرضهم، ولا دين لهم، ولا عقول.

وأشرهم قوقو، قصار الأعناق، فطس الأنوف، حمر العيون، كأن شعورهم حب الفلفل، وروائحهم كريهة كالقرون المحرقة، يرمون بنبل مسمومة بدماء حيَّات صفر، لا تلبث ساعة واحدة حتى يسقط لحم من أصابه ذلك السهم عن عظمه ولو كان فيلا أو غيره من الحيوانات.

والأفاعى وجميع أصناف الحيات عندهم كالسمك يأكلونها، لا يبالون بسموم الأفاعى ولا الثعابين، إلا بالحية الصفراء التى فى بلادهم، فإنهم يتَّقونها ويأخذون دمها لسهامهم وقسيِّهم، صغار قصار، رأيتهم فى بلاد المغرب ورأيت قسيهم وأوتارهم من لحاء الشجر الذى فى بلادهم، ونبلهم قصار كل سهم شبر ونصالهم شوك شجر كالحديد فى القوة، قد شدوه فى نبلهم بلحاء شجر، يصيبون الحدق.

وهم شر نوع فى السودان، وسائر السودان ينتفع بهم فى الخدمة والعمل إلا قوقو فلا خير فيهم إلا فى الحرب، ولهم ألواح صغار مثقبة بثقب غير نافذة يصفرون فى تلك الثقب فتصوّت بأصوات عجيبة، فيخرج إلى ذلك الصوت جميع أنواع الحيات والأفاعى والثعابين

(١) فكرة كون الذهب نبات ينبت فى أرض السودان فكرة شائعة بين عدد من الجغرافيين، ومن بين المتقدمين على أبى حامد فى هذه النظرية ابن الفقيه (أوائل القرن الرابع الهجرى) الذى يقول فى هذا السياق: «وبلاد غانة ينبت فيها الذهب نباتًا فى الرمل كما ينبت الجزر، ويقطف عند بزوغ الشمس (ابن الفقيه: مختصر كتاب البلدان ص ٨٧).

فيأخـذونها ويأكلونها، وفـيهم من يشدها على وسطه كـما يشد الحزام، ومنهم من يتـعمم بالثعـبان الطويل ويدخل السوق على غـفلة فيكشف ثوبه ويرمى على الناس أنواع الثـعابين والحيات فيعطوه شيئًا حتى يخرج وإن لم يعطوه ألقى فى دكاكينهم من تلك الحيات.

ويجىء من بلاد السودان أنواع من جلود الماعز مدبوغة دباغـة عجيبة، الجلد الواحد يكون غليظا كبيراً لـينًا محببًا فى لون البنفسج إلى السواد يكون الـجلد الواحد عشرين منًا، يتـخذ منه الخـفـاف للملوك، ولا يبل بالمـاء ولا يبلى ولا يفنى مع لينه ونعـومتـه وطيب رائحـته، يبـاع الجلد الواحد بعـشرة دنانيـر، تبلى خـيوط الخف ولا يبلى هو ولا يتـقطع فيغسلونه فى الحمَّـام بالماء الحار فيعود كأنه جديد، يتوارثه صـاحبه عن أبيه عن جده وهو من عجائب الدنيا.

وعندهم حيوان يقال له اللمط مثل الثور الـكبير، له قرنان كالرماح تطول بطول بدنه، ممدودة على ظهره، إذا طعن بها الحيوان أهلكه فى الحال، عريض العنق، يتخذ من جلدة تراس يقال لها الدرق اللمطية[١] مضافة إلى ذلك الحيـوان، يكون ثلاثة أذرع، وهى خفيفة لينة لا ينفذها الـنشَّاب، ولا يؤثر فيـها السيف تكون بيـضاء كالقـراطيس، وهى من أحسن التراس مبسوطة كالرغيف تستر الفارس وفرسه.

ومن أنواع السودان زيلع[٢]، وهم أعفُّ أهل السودان، مـسلمون يصـومون ويصلون ويحجون إلى مكة كل سنة مشاة، وبلاد السودان إلى الزنج والبجاه مسيرة أربع عشرة سنة، يأكلون الكلاب ويفضلونها على الغنم ويأكلون الفأر.

وبقى من المائة سنة العمـران ست سنين بين الحبشة والهند والصـين والفرس والترك والخـزر والصـقالبـة والروم والإفـرنج والنامش واللكز والطالـشان والعـرب وأهل اليـمن والعراق والشـام ومصر وأندلس إلى رومـية العظمى وسائـر أهل الكفار، وإنما المـسلمون بينهم جزء من ألف جزء.

وعند صنعاء أمة من العرب قد مـسخوا، كل إنسان منهم نصف إنسان، له نصف رأس

---

(١) مدينة لمطة: لدى ابن سعيد أنها تقع فى غربى كزولة، التى تفصل بينها وبين المحيط الأطلسى، ولدى ياقوت: لمطة: أرض لقبيلة من البربر بأقصى المغرب، يقال للأرض وللقبيلة معًا: لمطة.

(٢) ثغر على الشاطئ الإفريقى لخليج عدن.

ونصف بدن ويد واحدة ورجل واحدة، يقال لهم وبار، هم من ولد إرم بن سام أخو عاد وثمود، وليس لهم عقول، يعيشون فى الآجام وفى بلاد الشحر على شاطئ بحر الهند، والعرب تسميهم النسناس، ويصطادونهم ويأكلونهم، وهم يتكلمون بالعربية ويتناسلون ويسمون بأسامى العرب، ويقولون الأشعار، ورأيت فى «تاريخ صنعاء» أن تاجراً سافر فى بلادهم فرآهم يثبون على رجل واحدة ويصعدون الشجر ويفرون خوفًا من الكلاب أن تأخذهم، وسمع واحداً منهم يقول: [رجز]:

فررت من خوف السراة شدّا
إذ لم أجد من الفرار بدا
قد كنت قدما فى زمانى جلدا
فها أنا اليوم ضعيف جداً[1]

وقد ذكرهم الأعشى فى شعره حيث يقول: [مخلع البسيط]:

ألم تروا إرما وعادا
أفناهم الليل والنهارُ
وأهلكت بعدهم ثمود
بما جنى فيهم قدارُ
وحلّ بالحىّ من جديس
يوم من الشر مستطارُ
وجاسم بعدها وطسم
قد أوحشت منهم الديار
ومسّخت بعدهم وبار
فلا صحار ولا وبار

وفى بلاد السودان أمة لا رءوس لهم ذكرهم الشعبى فى كتاب «سير الملوك».

وذكر أن فى فيافى بلاد المغرب أمة من ولد آدم كلهم نساء ولا يكون بينهم ذكر، ولا يعيش فى أرضهم وأن أولئك النساء يدخلن فى ماء عندهن فيحملن من ذلك الماء، فتلد كل

(١) آثار البلاد ص ٦٤.

امرأة بتتًا ولا تلد ذكرًا البتة، وإن تبعًا ذا المنار وصل إليهن لمّا أراد أن يصل إلى الظلمات التى دخلها ذو القرنين والله أعلم، وأن ولده إفريقش بن تبع ذا المنار هو الذى بنى مدينة إفريقية وسماها باسم نفسه، وأن والده تبع وصل إلى وادى السبت وهو واد بالمغرب يجرى فيه الرمل كما يجرى السيل لا يمكن حيوان أن يدخل فيه إلا هلك، فلما رآه استعجل الرجوع، وذو القرنين لما وصل إليه أقام إلى يوم السبت فسكن جريانه، فعبر إلى أن وصل إلى الظلمات فيما يقال والله أعلم.

وأولئك الأمة الذين لا رءوس لهم، أعينهم فى مناكبهم، وأفواههم فى صدورهم، وهم أمم كثيرة كالبهائم يتناسلون ولا مضرة على أحد منهم، ولا عقول لهم، والله أعلم.

والمُلْكُ العظيم والعدل الكثير والنعمة الجزيلة والسياسة الحسنة والرخاء الدائم والأمن الذى لا خوف معه فى بلاد الهند وبلاد الصين، وأهل الهند أعلم الناس بأنواع الحكم مثل الطب والنجوم والهندسة والصناعات العجيبة التى لا يقدر أحد سواهم على أمثالها.

وفى جبالهم وجزائرهم ينبت شجر العود وشجر الكافور وجميع أنواع الطيب كالقرنفل، وجوز بوا[1]، والسنبل والدارصينى، والقرفة، والسليخة، وقاقلّة، وكبابة، وبسباسة، وأنواع العقاقير والأدوية.

وعندهم حيوان المسك الفائق وهو حيوان كالغزال يجمع المسك فى سرّته، وعندهم حيوان الزباد، وهو نوع من الطيب، وذلك الحيوان كالسنّور يحمل إلى بلد المغرب وذلك عرق يؤخذ من ذلك الحيوان كالقطران الأسود ثخينا، يسيل من جسده، وتزيد رائحته بالمغرب، بحيث يكون أزكى من المسك، ويخرج من بلادهم أنواع اليواقيت وأكثرها فى جزيرة سرنديب، وعلى جبلها نزل آدم عليه السلام من الجنة فيما يقال.

[بلاد الصين]

وأما بلاد الصين: فهى كبيرة، وملوكها أهل عدل وإنصاف وهم أكثر من أهل الهند أضعافًا مضاعفة، وفى أرضهم نعم كثيرة، ولهم أنواع من الصنائع لا يهتدى إليها غيرهم

(١) جوز بوا: هو جوز الهند، يؤتى به من بلاد الهند (ابن البيطار: الجامع لمفردات الأدوية جـ١ ص ١٧٥).

كالفخار الصينى والديباج وغيـر ذلك وهم يعبدون الأصنام كأهل الهند، لا يأكلون الحيوان ولا ما يخرج من الحيـوان كاللبن والعسل، ويحرمون على المسلمين ذبح البـقر، ويبيحون لهم ما سوى ذلك.

وإذ مرض منهم أحد أعطى للقصاب مالاً بقدر ما يرضيه أيامًا ويقول أعتق الحيوان من الذبح أيامًا معدودة على قدر ما يرضيه.

وإذا مات بينهم غريب وله أحـمال من الأموال لا يتعرضون لتركـته ولا لشيء من ماله وأولاده ونسائه، ويحترمـون التجار من المسلمين غاية الاحتـرام ولا يؤخذ منهم أعشار فى بيع وشراء ولا مكس، فيا ليت ملوك المسلمين اقتـدوا بمثل هذه السياسة الحسنة فهم كانوا أحق بها، ولكن ذلك للحكمة الإلهية وذلك أن النبى ﷺ قال: «الدُّنيا سِجْن المؤمن»[1] والسجن موضع الضيق والخوف، ولا يكون ذلك إلا مع عـدم العدل وكثرة الظلم والجور وقلة المال والخصب حتى يتحقق فى حق المؤمن السجن فى الدنيا.

وقـال ﷺ: «الدنيا جنـة الكافر» والجنة مـوضع الرخـاء والنعـمة والأمن والعـدل والسياسة والطيب وأنواع الطيبات والحمـد لله الذى جعل جور ولاة المسلمين من معجزات سيد المرسلين محمد ﷺ وعلى آله وصحابته أجمعين والحمد لله رب العالمين.

وأما الجانّ فإنى قـرأت فى بعض الكتب المتـقدمـة المأثورة عن العلمـاء أن الله تبارك وتعالى لما أراد أن يخلق الجان خلق نـار السموم، وخلق من مارجها خلقًا سمـاه جانًا كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ﴾ (سورة الحجر: ٢٧) وقال عز وجل فى مـوضع آخر: ﴿وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ (سورة الرحمن: ١٥) ثم خلـق من الجن زوجته وسماها جنّيه؛ فتغشاها زوجـها الجان فحملت فأقامت ما شاء الله فلما أثقلت وضعت إحدى وثلاثين بيضـة، فانفلقت منها بيضة واحدة فخرج منهـا حيوان على خلاف الجن فى الخلق والشكل، فـقالت لها الجـنّية: من أنت؟ فقـالت: أنا قُطْرُبّة أم القطارب، فقالت لهـا الجنّية: يا قطربة؟ فقالت: أنا قطربة، سـميعا دعوت، فـمن يعنى بأمرك؟ قالت الجنّيـة: يا قطربة لمـاذا خُلِقْتِ؟ قالت: قطربة: خلـقت لأحضن هذا البـيض وأفرقـه فى ظانّه، قالت الجنّية: فدونك.

(١) أخرجه صاحب الكنز برقم ٦٠٨١.

قال: فجلست قطربة على ذلك البيض شهراً واحداً، ففقست منها بيضة واحدة فخرج منها ستون ألف إبليسٍ وستون ألف إبليسة ذكوراً وإناثًا فيما يقال والله أعلم. إبليس اللعين واحد منهم، وفقست بيضة أخرى فخرج منها ستون ألفًا من السعالى وستون ألفًا من إناثهم، وفقست بيضة أخرى فخرج منها ستون ألفًا من الغيلان ومثلهم من إناثهم، وفقست بيضة أخرى فخرج منها ستون ألفًا من الهوام ومثلهم من إناثهم، وفقست بيضة أخرى فخرج منها ستون ألفًا من الدهانش ومثلهم من إناثهم، وفقست بيضة أخرى فخرج منها ستون ألفًا من الغمامية ومثلهم من إناثهم، وفقست بيضة أخرى فخرج منها ستون ألفًا من العفاريت ومثلهم من إناثهم، وفقست بيضة أخرى فخرج منها ستون ألفًا من السحابية ومثلهم من إناثهم، وفقست بيضة أخرى فخرج منها ستون ألفًا من الدخانية ومثلهم من إناثهم، وفقست بيضة أخرى فخرج منها ستون ألفًا من النارية ومثلهم من إناثهم، وفقست بيضة أخرى فخرج منها ستون ألفًا من النجاسية ومثلهم من إناثهم، وفقست بيضة أخرى فخرج منها ستون ألفًا من الذهابية على لون الذهب ومثلهم من إناثهم، وفقست بيضة أخرى فخرج منها ستون ألفًا من الريحية ومثلهم من إناثهم، وفقست بيضة أخرى فخرج منها ستون ألفًا من الزوابعة ومثلهم من إناثهم، وهم الذين يدورون بالريح والغبار فى البرارى كما تدور الرحى. ففرقت قطربة كل جنس من هؤلاء الجن حيث أراد الله تعالى من القفار والجبال والرمال والغيران والغياض والبحار والجزائر والظلمات والهواء ومواضع النجاسات ومواضع الدماء ومواضع القبور، وقالت لهم: اكثروا واعمروا فكل واحد منكم يغشى زوجته فتضع له إحدى وثلاثين بيضة فى كل بيضة ستون ألف ذكر وستون ألف أنثى وهذا ما لا يحصيه إلا الله تعالى، ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ﴾ (سورة الأعراف: ١٧٩).

ولولا أن الله سبحانه وتعالى وكّل بكل آدمى ملائكة يحفظونه من الجن لأهلكت الجن ولد آدم، فقال الله تبارك وتعالى: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ (سورة الرعد: ١١) فلله الحمد على فضله ونعمه، وكم فى الأرض من أنواع المخلوقات لم يسمع بذكرها، قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ (سورة النحل: ٨).

واعلم أن الأرض والجبال والبحار التى قد أحاط بها جبل قاف وما فيها من عجائب المخلوقات فى فلك القمر الذى هو أصغر الأفلاك كالنقطة فى الدائرة العظيمة التى لا تبين فيها، وهذه الأرض بما فيها من الهواءَ والفلك محيط بها من كل جانب بلا دعامة تحتها ولا علاقة من فوقها، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا ﴾ (سورة فاطر: ٤١) وفلك القمر فى الفلك الثانى كالأرض فى فلك الدنيا، وكل فلك فى الذى فوقه كالأرض فى فلك القمر، والسموات السبع فى الكرسى قال ﷺ كحلقة ألقيت فى فلاة من الأرض، قال الله عز وجل: ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ ﴾ (سورة البقرة: ٢٥٥) والكرسىُّ عند العرش كحلقة فى فلاة من الأرض، قال الله تعالى: ﴿ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ (سورة التوبة: ١٢٩) وقال جعفر بن محمد الصادق عليهما السلام، يرويه عن أبيه فى صفة العرش أن العرش له ثلاثمائة ألف قائمة، وستون ألف قائمة دور كل قائمة ثلاثمائة ألف سنة وستون ألف سنة، بين كل قائمتين ثلاثمائة ألف وستون ألف سنة، علو كل قائمة ألف ألف طبقة، مثل ما بين العرش إلى آخر العالم، وهذا ما لا يحصيه إلا الله عز وجل.

وخلق الله عز وجل حية وقد أحاطت بالعرش[1] والتقى رأسها وذنبها، ولها من الأجنحة عدد لا يعلمه إلا الله عز وجل، على كل جناح من أجنحتها من الملائكة المقربين ما لا يعلم عددهم إلا الله تعالى، فى يد كل ملك منهم حربة من نور لا يعلم عظمها إلا الله تعالى، لو كشف الحجاب عن نور حربة ملك منهم لأحرق نورها من دونهم، فسبحان الله ما أعظم شأنه وأكبر سلطانه.

والأمر أعظم والسلطان أكبر مما سمعناه أو توهمناه، والله أعلم بكل شىء وهو على كل شىء قدير، وقد قال تعالى: ﴿ وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾ (سورة النحل: ٨) وقال رسول الله ﷺ : «إن لله تعالى فى ناحية المغرب أرضًا للشمس فيها مسيرة ثلاثين يومًا، قيل: يا رسول الله، هل يسكنها أحد من بنى آدم؟ قال: يسكنها خلق من خلق الله تعالى لا يعلمون أن الله تعالى خلق آدم قط، قيل: فهل يدخلهم إبليس لعنه الله؟ قال: ما يعلمون أن الله تعالى خلق إبليس قط.

فتفكر أيها العبد الضعيف فى هذه الأرض التى هى أعظم من السموات السبع مرات

(١) هذا من الإسرائيليات التى لا يصدقها العقل ولا تستقيم مع الفكر الإسلامى القويم.

وما فيها من عجائب المخلوقات، فكيف فى غيرها من الجهات، فكيف قوائم العرش الذى دور كل قائمة ثلاثمائة ألف سنة وستون ألف سنة، كم داخل كل قائمة من العالم ولهذا قال ﷺ: «تفكروا فى خلق الله ولا تتفكروا فى الله» لأن التفكر فى المخلوقات من أجل العبادات والتفكر فى الله تعالى يخاف على المتفكر أكبر الضلالات، لأنه تعالى ليس كمثله شىء وهو السميع البصير، جعلنا الله وإياكم من الفائزين الآمنين المستبشرين المطمئنين، إنه أرحم الراحمين.

obeikandl.com